صورة المرأة في الرواية العربية التاريخية
(دراسة في البنية والدلالة)

محمد تنوير*

إنّ الرواية كلمة قديمة قدّمها الأدب والفن حتى توجد في العصر قبل الإسلام حيث كان الكتّاب والشعراء يحاولون أن يعبّروا عن كل ما كان حولهم يستحق أن يعبر بصدق وإخلاص غير أن معظم هذه الأعمال كانت مثالية أو وهمية بحيث ابتعدت كل البعد عن الحياة الواقعية وعن الأصول والقواعد الفنية التي وضعها النقاد للرواية الفنية والتي لم تظهر في الأدب العربي إلّا في أواخر القرن التاسع عشر حيث تعبّر عن عواطف الإنسان واحساساته وتصف مشاكله وهمومه حتى أخذت مكانا مرموقا في الأدب العربي، وأمّا الرواية التاريخية فهي من أنواعها الهامة وعرفت بأنّها عمل فنيّ ينقل إلينا فهم الأديب للتّاريخ ونظريته العميقة له إذ يركز كل همّه إلى حدث معين للتاريخ. فيحاول تشكيله تشكيلاً فنيّا لمعالجة قضية من قضايا مجتمعه في ضوء تلك الحقبة من التاريخ الّتي يستلهم منها مادة لروايته. وفضلا عن ذلك إذ نأخذ الرواية التاريخية باعتبار أنها سرد قصصي يدور حول حوادث تاريخية حقيقة حيث يعتمد الروائي على فترة تاريخية معينة لإحياءها أو لإزالة مشاكل معينة في ضوءها.

---

* باحث الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

ويتفق النّقاد على أن الرواية التاريخية بدأت على يد الكاتب الانجليزي "ولتر سكوت" (Walter Scott) (١٧٧١-١٨٣٢م) في بداية القرن التاسع عشر بحيث يعدّ رائدا للرواية التاريخية وهو الّذي أثبت القوانين الخاصة لهذا النوع من الرواية. وكانت محاولته الأولى لهذا الصدد روايته "ويفرلي" (Waverly) ١٨١٤م، وقد انتقد المؤرخون موقف ولتر سكوت من الحقائق التاريخية قائلين إنه عبث بالتاريخ إذ حوره في سبيل القصة[١]. ويقول البعض إنّه يلجأ إلى خديعة القارئ إذ يربط أجزاء قصته بسرّ يحتفظ به طوال القصة ولا يحاول تكشيفها حتى في نهايتها. ثمّ حظى الكاتب الفرنسي إسكندر ديماس (Alexander Dumas) ١٨٠٢-١٨٧٠م بالرواية التاريخية حظوة مهمة حيث غرز العنصر القصصي على حساب الجانب التاريخي[٢]. وكان لهذين الكاتبين مساهمة في نشأة الرواية التاريخية في الآداب الغربية.

وأمّا في الأدب العربي فكان لجرجي زيدان الفضل الأكبر في إدخال هذا الجنس إلى الأدب العربي على حد تعبير كثير النقاد وعلى رأسهم سهيل إدريس[٣]. وحاول زيدان برواياته التاريخية أن يعكس بداية الشعور بالإحساس القومي ممثلا في القومية العربية حينا وفي الشخصية المصرية حينا أخر؛ وعلي الرغم من وجود بعض المحاولات المتواضعة في البيئة العربية للرواية التاريخية فان زيدان قام بتثبيت هذا الفن وتأكيد سمات معينة له لذلك نجد في رواياته بعض الأفكار والأحداث العاطفية تتكرر من رواية لأخري؛ ولا يتغير فيها إلا المسميات فحسب.

وإذا أمعنا النظر في الرواية التاريخية وجدنا أن كتابها عنوا عناية خاصة بشخصية المرأة، حيث قدموا نماذج فعالة لها، وجعلتها من الشخصيات

المشاركة في صنع الأحداث والمؤثرة في تطورها، وقد حظيت المرأة مكانة كبيرة عند جرجي زيدان، فلا نكاد نجد رواية من رواياته التاريخية تخلو من شخصية المرأة الفاعلة والقوية المؤثرة في الأحداث، وكذلك برز دور المرأة عند محمّد فريد أبو حديد بـ"ابنة المملوك" متحركا في اطار الوطنية المصرية؛ كما قد انتقل في رواياته الأخرى إلى الاطار القومي؛ الذي يتغنى بالقومية العربية وبصفات الأنسان العربي كما أن روايته "آلام جحا" (١٩٦٤م) ورواية "جحا في جانبولاد "(١٩٤٧م) تنقل القراء إلى الإطار الإنساني؛ والبحث الدقيق علي رواياته وخاصة علي رواية "زنوبيا" نجد أن شخصياتها ليست مجرد أسماء وأشخاص فحسب مثل "حورية" بل إنما هي إنسان ذات أخلاق عالية وأقدار غالية؛ والمرأة (حورية) ليست إلا وعاء لحفظ النوع . بل هي امرأة لا تفهم غير وحي الغريزة كسائر النساء؛[٤] ثم نجد إبراهيم رمزي حيث قدم رواية تاريخية طويلة " باب القمر" ويتبع رمزي في هذه الرواية طريقة جرجي زيدان من حيث العناية في الدرجة الأولي بالتاريخ وحده؛ وأما تجربة الحب للمرأة فهي زائدة مقحمة؛ والرواية تبين تاريخ الإسلام من فجره في المنطقة العربية كما قامت الرواية بمعالجة الأوضاع الطبقية وبتوضيح وجوب ترك الحرية للفتاة عند الزواج.

وجاء علي احمد باكثير بكثير من الروايات التاريخية والمسرحية مبتدأ بتاريخ العروبة والإسلام؛ ومن أهم ما كتب باكثير في الفترة البدائية؛ هما روايتين: "سلامة القس" (١٩٤٤م) "وا اسلاماه" (١٩٤٩م) فالرواية الأولي والثانية تظهران مكانة المرأة وصورتها في المجتمع العربي بحيث هي دائما أنثى لا تستطيع أن تعيش من غير الزواج أو الحبيب؛ فهي إذن مجرد حبيبة أو ربة بيت؛ وإن اشتركت في الحرب تقتصر على تطبيب الجرحي وعلاجهم؛ ونجد صورة المرأة

عند سعيد العريان أكثر نموا وحركة؛ وفي رواية "على باب زاويلة" توجد خطوة أكثر عمقا؛ بل نستطيع أن نقول إنها أفضل ما قدمه الكاتب في الرواية التاريخية وصورة المرأة فيها أكثر حركة وإيجابية. وشارك عبد الحميد جودة السحار برواية "أميرة قرطبة" (١٩٤٨م) في الإطار العربي وتناولت الرواية حياة الجارية "صبيحة" التي استطاعت أن تتزوج من الخليفة وأن تكون الحاكمة الحقيقية للأندلس؛ ولكنها مع ذلك لا تسلم من العواطف الأنثى الجامحة التي تهزمها في النهاية. وأهم الرواية التاريخية التي أصدرها نجيب محفوظ سنة ١٩٢٩م هي "عبث الأقدار" التي تحكي قصة تعبث فيها الأقدار بالناس؛ وتثبت قدرتها علي أن تنفذ مشيئتها؛ ونجد الصراع في هذه الرواية يدور بين البشر والقدر؛ وتمضي روايته الثانية "رادوبيس" في نفس الاطار الفكري الذي يحطم صورة الملوك المقدسة ويمجد حكمة الملكة وضرورة الثورة. فدور المرأة في الحياة كما تعكسه رؤية الروائيين الفنية في الرواية التاريخية هو دور "ربة البيت" إذ المرأة ليست إلا أنثي أو أداة لحفظ النوع ؛ كما تتجلي في رواية "زنوبيا" لمحمد فريد أبو حديد؛ حيث تنكر مساواة المرأة بالرجل ؛ والمرأة تعيش في دائرة نفسها ولا تعبأ بشيء في العالم الخارجي؛ وعبر السحار بالصورة الروائية دور المحافظ للمرأة بحيث استطاعت "صبيحة" (بطلة الرواية) أن تصبح الحاكمة الفعلية للبلاد؛ إلا أنها تسقط في النهاية لا لشيء سوي أنها أنثي تحركها العاطفة أكثر مما يحركها العقل؛ وهذا السقوط نجده أيضا في رواية "شجرة الدر" لسعيد العريان حيث تظل زوجة وفية للملك الصالح وحين يعود لزوجته الأولي تتحرك فيها العواطف الأنثى فتقتله؛ ويعلق الكاتب علي هذا بقوله: "هكذا النساء جميعا تهيجهن الغيرة فلا يعرفن الفرق بين الحب والبغض؛ ولا ما بين

القصاص والجريمة"[٥]. ونفس القضية نجدها في رواية "سيدة القصور "لعلي الجارم".

وعلي هذا فالمرأة عند هؤلاء الكتاب انطلاقا من مفهومهم السلفي لا يصلح إلا أن تكون زوجة تقوم بشؤن البيت ؛ لا وظيفة لها إلا حفظ النوع؛ و في الحرب تفعل ما فعلته السلطانة جلنار— في رواية " وااسلاماه" لعلي احمد باكثير— حين جعلت همها حماية زوجها من الغيلة؛ فجعلت تلاحظه وهي علي جوادها وتراقب من حوله؛ وحين أبصرت عدوا يريد طعنه غدرا؛ توجهت حيث هي محجوبة فضربت العدو وقالت لزوجها: صن نفسك يا سلطان المسلمين ها قد سبقتك إلى الجنة [٦]؛ وعكسا علي ذلك فان الرواية التاريخية تصور المرأة محجبة بعيدة عن أحداث المجتمع؛ فان اضطرتها الظروف فلا بد من التوصية بالتقوي وحسن السلوك؛ عبد الرحمان القس ينصح سلامة بقوله " أما الغناء فأنت محمولة عليه؛ وهو صناعتك واري أن لا حرج عليك فيه إذا أنت حافظت علي صلاتك وصيامك وعصمت نفسك بالتقوي". [٧]

والملاحظة هنا أن صورة المرأة في الرواية التاريخية تنتهي نهاية حزينة: إما بالأسر كما في "زنوبيا" أو القتل كما في "وااسلاماه" أو فقد الحبيب كما في "على باب زاويلة" وهذه الصفة كانت غالبة علي الرواية التاريخية كما وجدناها عند الروائيين المذكورين أعلاه.

وإننا اذا ألقينا النظر علي روايات نجيب محفوظ نجد موقفه الفكري من دور المرأة في المجتمع والحياة أكثر تقدمية ومواكبة لمتطلبات العصر فالمرأة عند نجيب محفوظ لا تقف علي الدور الأنثوي الذي تمارسه عند كتاب التيار العربي؛ بل هي إنسان متفاعل تبرز فيه سمات الخير والشر؛ والكاتب يؤكد علي

ما يمكن أن تذهب بالمرأة من أدوار مختلفة في الحياة؛ وانها قد تقود الحرب مثل "الأم توتيشيري" في "كفاح طيبة" وتحكم وتفقه أمور الدين مثل الملكة "تي" في رواية "ملك من شعاع" وقد تقود المرأة في روايات نجيب محفوظ الثوار كما تتجلي في رواية "رادوبيس " بحيث تحرك في زوجها دوافع المجد والعلا وتحارب من اجل أن تصبح ملكا؛ وانها تقدم حبيبة مثل الأميرة "مري سي غنج" في رواية "عبث الأقدار " فإنها ليست مثل "صبيحة" في أميرة قرطبة" للسحار تحب من أول نظرة ؛ ولا ينسيها الحب منزلتها؛ وعلي ذلك وصلنا إلى نتيجة أن روايات نجيب محفوظ التاريخية تناولت قضية المرأة من النواحي المختلفة إما إيجابية أو سلبية وذلك في رأي يعتمد على أزمة الأديب ذاته أو تجربته الذاتية مع المرأة.

ونري بعض كتاب الرواية التاريخية يصور صورة المرأة. إما كملائكة والبعض الأخر يقدمها كشيطانة؛ كما نري أن الروائيين قدموا تصويرا رائعا للمرأة إذ انهم قدموا جانبا إيجابيا للمرأة كما نجد في رواية "زنوبيا" التي قدم فيها محمد فريد أبو حديد كملكة تدمر التي تشارك زوجها في سياسة الدولة. وذكر عبد الحميد جودة السحار في رواية "أميرة قرطبة" حياة الجارية "صبيحة" التي استطاعت أن تتزوج من الخليفة وأن تكون الحاكمة الحقيقية للأندلس. هذا من جانب ومن جانب أخر قدم الروائيون صورة سلبية للمرأة أيضا؛ نجد السحار يصور المرأة كأنها "شيطانة" كما نجد عبد الحليم عبد الله يصور المرأة سلعة تباع وتشتري في السوق. وإننا نجد شخصية (جلنار) في رواية "وااسلاماه" لعلي احمد باكثير التي احتلت مكانا بارزا في روايته نعم الحبيبة والزوجة في اليسر والعسر؛ ومثلت مصدر الهام وتشجيع لزوجها في جهاد التتار؛ كما كان لها دور بارز وحضور فعال في معركة عين جالوت؛ التي استشهدت فيها مضحية

بنفسها في سبيل إنقاذ زوجها من الموت علي يد ملوك تتري. وقد ظهرت كلمة "واسلاماه" التي هي عنوان الرواية لأول مرة علي لسان جلنار زوجة المظفر قطز عندما أصيبت في معركة عين جالوت؛ وقال لها زوجها:" وازوجاه واحبيبتاه" وردت عليه: لا تقل واحبيبتاه - قل واسلاماه [٨]. ثم لفظت أنفاسها الأخيرة. ويمثل باكثير شخصية شجرة الدر في نفس الرواية كشخصية تاريخية حقيقية حكمت مصر بعد وفاة زوجها الملك الصالح أيوب؛ ونجد هذه الشخصية قوية وطموحية سببا في تأجيج الصراع بين زعماء المماليك؛ اللذين كانوا يسعون للزواج منها للوصول إلي حكم مصر؛ كما يمثل باكثير في جانب أخر شخصية "راجية" أخت حمدان الصغرى كنموذج للمرأة الفاسدة المنحرفة في نفس الرواية؛ حيث كشفت أحداث الرواية عن طبيعتها الميالة للانحراف؛ فقد تطلعت إلى "ثمامة" العيار بالرغم من علمها بأخلاقه وطباعه الفاجرة؛ ثم سقطت مع الشيخ الاهوازي داعية المذهب القداحي وحملت منه سفاخا.

ونلاحظ مقابلة هذا النموذج للنماذج النسائية السابقة وتضاده معها؛ ويعمل باكثير علي تقبيحها وذمها وانتقادها بمقارنتها بالنماذج النسائية العفيفة والمشرفة. وجدير بالملاحظة أن علي احمد باكثير أكد على أهمية دور المرأة في المجتمع؛ ولا يقلل من شأن المرأة بل عمل على رعايتها وحفظ كرامتها. كما اهتم باكثير بتحليل شخصيتها وتغلغل في أعماقها النفسية وعلى دوافعها وتصرفاتها التي تختلف باختلاف الظروف البيئة والثقافية. ويلاحظ تقديمها بنماذج متعددة لشخصية المرأة؛ وعلي كل ذلك تعددت صورة المرأة في الرواية التاريخية ولكنها لم تخرج عن صورة الأم؛ الأخت والابنة؛ كما أصبحت المرأة في بعض أعمال الروائيين كالحيوان فقدت صفتها الإنسانية فهي تحيا دون

الشعور بالحياة؛ ومن ناحية الأخرى حضورها في صناعة التاريخ بمختلف مراحلها ومساهمتها الفعالة حيث خلدت لنا قائمة طويلة من الأسماء العظيمة التي كانت ولا تزال مثالا للشجاعة والبطولة والتضحية والمثابرة ومقاومة للخوف والجوع و الجهل؛ وبقيت المرأة وفية لنضالها ووطنها في معركة إثبات نفسها في مختلف ميادين الإبداعي الأدبي.

وإن المرأة لها حيثيات مختلفة فهي أم و بنت حبيبة وأخت حانية وزوجة وفية؛ ولكننا نجد في الروايات التاريخية أنها لم تصور المرأة في هذه الحيثيات بصورة عامة بل أنها تقدمها في أوضاع تنال من شرفها وكرامتها؛ وتصورها تصويرا يحط من قدرها ومنزلتها؛ وتجعلها ذريعة للمتعة الجسدية غير الشرعية؛ بل إن المرأة كما تعكس في أعمال بعض الروائيين آلة للوصول إلى مكاسب دنوية مادية فحسب؛ ومن ناحية أخري تتجلي كالرجل منها صالحة ومنها طالحة؛ ولها لحظات ارتفاع وسمو كما لها لحظات هبوط وسقوط؛ والملاحظة أن المرأة العربية هي المرأة المقهورة؛ السلبية؛ المتلقية؛ الخاضعة للهيمنة الذكورية؛ ولم تخرج المرأة عن هذه الصورة إلا في حالات محددة.

الهوامش:

١. ومن أهم رواياته في الصدد: راب راي (Rab Ray 1817)، ايوان هو (Ivanhove 1819)، ابوت (Abott 1820).

٢. ومن أهم رواياته التاريخية: الكونت دي مونث كرستو، الفرسان الثلاثة، بعد عشرين عاما.

٣. محاضرات عن القصة في لبان، ط معهد الدراسات العربية، ص: ١٦٧

٤. فريد أبو حديد: زنو بيا، ص: ٢١٧

٥. سعيد العريان: شجرة الدر، ص: ٦٠

٦. علي الجارم: غادة رشيد، ص: ١٣٩

٧. علي أحمد باكثير: وا اسلاماه، ص: ١٦٩

٨. علي أحمد باكثير: وا اسلاماه، ص: ١٩٣

المصادر والمراجع

- أنور الجندي: "أدب المرأة العربية والقصة العربية المعاصرة" ط مطبعة الرسالة؛ الطبعة الاولي ١٩٦٢م
- أنيس المقدسي: "الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث" ط؛ دار العلم للملايين؛ بيروت؛ ١٩٩٦٧م
- بثينة شعبان الدكتورة: "مأة عام من الرواية النسائية العربية" دار الادداب للنشر والتوزيع بيروت ١٩٩٩م
- طه وادي: "صورة المرأة في الرواية المعاصرة" ط دار المعارف؛ القاهره١٩٩٣
- عادل كامل: "ملك من شعاع" ط الهيئة المصرية العامة للكتاب؛٢٠٠١م
- علي الجارم: "غادة رشيد"ط دار المعارف ؛ مصر
- علي الراعي الدكتور: "دراسات في الرواية المصرية"ط وزارة الثقافة والارشاد القومي؛ بيروت
- محمد فريد ابو حديد: "ابنة الملوك" ط مطبعة الاعتماد؛ القاهرة؛
- نجيب محفوظ: "رادوبيس" ط مكتبة مصر ؛ القاهرة؛١٩٧١م

* * *